

وفي القرن التاسع سلك برهان الدين بن عمر البقاعي (ت سنة ٨٨٥هـ) طريقة التطبيق في إظهاره لإعجاز القرآن، فألف كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) جمع فيه من أسرار القرآن، وأتقن الكلام في فن المناسبات بين الآيات والسور كما يبنى عنه اسم الكتاب، وهو من باب إعجاز القرآن في حسن تأليفه وتفرده في ذلك.

ثم كان القرن العاشر الذي شهد فارسا من فرسان هذا الباب، وعلمنا من أعلام الإسلام، وهو الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت سنة ٩١١هـ) الذي ألف سفره القيم (الإتقان في علوم القرآن) وضمنه ثمانين نوعا من مباحث علوم القرآن، خصص النوع الرابع والستين منها للكلام في إعجاز القرآن، فقدم بين يدي الكلام في ذلك بذكر بعض من أفرد الموضوع بالتصنيف من أعلام العلماء الذين مضى ذكر كثير منهم، مثل: الخطابي والرماني والباقلاني والرازي وغيرهم، ثم تكلم على أنواع المعجزات، والفرق بين معجزات السابقين من الأنبياء ومعجزة النبي صلى الله عليه وسلم وهي القرآن، ثم عرض آيات التحدي، وردّ القول بالصرفة، ثم ذكر أقوال العلماء في وجه إعجازه، فلخص ما قاله السابقون في ذلك، ثم ختم بنقل ما أورده القاضي عياض في أوجه الإعجاز الأربعة، وما تلاها من أوجه ذكرناها عند الكلام عما تضمنه كتاب (الشفاء) في موضعه.

وفي القرن الثالث عشر ألف العلامة شهاب الدين الألوسي (ت سنة ١٢٧٠هـ) تفسيره الموسوعي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) وعلى عادة كثير من المفسرين قدم بمقدمات قيمة ضمنها فوائد جليلة، جعل الفائدة السابعة منها في بيان وجه إعجاز القرآن، تكلم فيها على أوجه الإعجاز عند كثير من العلماء، ولم يرتض الكثير من أقوالهم خاصة ما قاله المعتزلة، وما قاله الجاحظ، وكذلك المرتضى، وردّ أكثر هذه الأقوال، وناقش أقوالا أخرى، حتى انتهى إلى أن قال: (وقد أطال العلماء الكلام على وجه إعجاز القرآن، وأتوا بوجوه شتى الكثير منها خواصه وفضائله، مثل الروعة التي تلحق قلوب سامعيه، وأنه لا يمله تاليه، بل يزداد حبا له بالترديد، مع أن الكلام يعادى إذا أعيد . وكونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه، والذي يخطر بقلب هذا الفقير: أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز بالنظر إلى نظمه وبلاغته، وإخباره عن الغيب، وموافقته لقضية العقل، ودقيق المعنى،

وقد تظهر كلها في آية، وقد يستتر البعض كالإخبار عن الغيب، ولا ضير ولا عيب، فما يبقى كافي، وفي الغرض وافٍ)

وفي القرن الرابع عشر تصدى مصطفى صادق الرافعي (ت سنة ١٣٥٦ هـ) لقضية الإعجاز بكتاب قيم هو: (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) تكلم فيه على معنى الإعجاز ومذاهب القدماء فيه، ومؤلفاتهم في فنة، ثم تكلم على حقيقة الإعجاز، واشتدت وطأته على القائلين بالصرفة

ومن بعد الرافعي كتب الكثيرون في إعجاز القرآن، مثل: الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في مبحث من مؤلفه (مناهل العرفان في علوم القرآن) والشيخ محمد عبد الله دراز في (النبأ العظيم) والشيخ بديع الزمان النورسي: (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز) من (كليات رسائل النور) والشيخ محمد أبو زهرة في (المعجزة الكبرى) والدكتورة عائشة عبد الرحمن في (الإعجاز البياني للقرآن) إلى جانب العشرات من الرسائل العلمية الجامعية التي تتناول إعجاز القرآن في جوانبه المختلفة.

وهكذا نجد أنه لم يخل عصر من العصور عبر القرون الإسلامية المباركة سواء في فترات النشاط أو الفتور العلمي من تناول إعجاز القرآن بالتأليف تفصيلاً أو تطبيقاً، مما ينطق بأن هذا المدد العلمي المتتابع إنما هو في ذاته أثر من آثار إعجاز القرآن الكريم.

أما أوجه الإعجاز التي تمخضت عنها هذه المؤلفات، والتي تعمقت في دراسات العلماء، ودرست باستفاضة، وسيقت لها الأمثلة والشواهد، فذلك ما سنلقى عليه الضوء فيما يلي.

وجوه الإعجاز في القرآن الكريم

نستطيع مما سبق عرضه من كتابات العلماء قديماً وحديثاً في إعجاز القرآن أن نستخلص ما عدوه وجوهاً لهذا الإعجاز، ذكروها صراحةً واستقلالاً وبينوها، أو أشاروا إليها ضمناً وأجزوها، وهذه الوجوه نذكرها فيما يلي:

أولاً: إعجازه في بلاغته وفصاحته

لعل إعجاز القرآن الكريم بلفظه من أهم وجوه إعجازه إذا لم يكن أهمها على الإطلاق، لأنه يتعلق بالقرآن ذاته في بنيته اللغوية لا ينفك عنها، ولا يرتبط -كما سيأتي بيانه في وجوه أخرى- بحال المنزل عليه، أو حال المخاطبين، أو الفترات الزمانية، ومن ثم كان هذا الوجه أول ما تناوله العلماء بالبحث، وكان قدرا مشتركا بينهم في الحديث عن الإعجاز، كما أفردوه بالتصنيف مثل الباقلائي في (إعجاز القرآن) والجرجاني في دلائل الإعجاز، والرافعي في (إعجاز القرآن) والشيخ محمد عبد الله دراز في (النبأ العظيم) أو جعلوه أكثر الأوجه بيانا إذا تكلموا فيه مع غيره، ولهذا أيضا كان حقيقا بالبده به وجعله في صدارة وجوه الإعجاز.

وبداية نقول: إنه لم يبلغ نمط من أنماط كلام العرب فيما قالوه شعرا أو نثرا، أيا كانت قوته بلاغة وفصاحة أن يكون قريبا من بلاغة القرآن وفصاحته، فقد بلغ القرآن في مضمار البلاغة والفصاحة الطرف الأعلى، وهو ما يمكن أن نسميه حد الإعجاز، لأن هذا كان الميدان الذي تحدى القرآن فيه العرب، وهم فرسانه، ولقد اطرده هذا التفوق اللغوي في القرآن سورة سورة، وآية آية، ومن ثم كان التحدي فيه أن يأتوا بسورة من مثله مما ينطبق على طويل السور وقصيرها.

وأصدق دليل على هذا الإعجاز موقف من تحداهم القرآن من فصحاء العرب من هذا التحدي عجزا واستسلاما مع حرصهم على تكذيب القرآن، وللفاضلي عياض في ذلك عبارات جامعة تذكر جانبنا من هذا الموقف في العجز، والاعتراف بالهوية المصدر القرآني - رغم الجحود والكفر - وأمثلة يسيرة تشهد لذلك نذكرها بنصها لتمام الفائدة.

قال رحمه الله تعالى: (فلم يزل صلى الله عليه وسلم يقرعهم أشد القرع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشنت نظامهم، ويذم آلهتهم وإياهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب، والإغراء بالافتراء، وقولهم: إن هذا سحر يؤثر، وسحر مستمر، وإفك افتراه، وأساطير الأولين، والمباهة والرضى بالدنيئة كقولهم: قلوبنا غلف، وفي أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، ولا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون، والادعاء مع العجز بقولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا، وقد قال لهم الله { وَلَنْ تَفْعَلُوا } فما فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيمة كشف عواره لجميعهم، وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم، وإلا فلم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم، ولا جنس

بلاغتهم، بل ولّوا عنه مدبرين، وأتوا مدعنين من بين مهتد وبين مفتون، ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي صلى الله عليه وسلم : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ } (النحل: ٩٠). الآية قال:

والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر، وذكر أبو عبيد أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ : { فَاصْنَعِمْ بِمَا تُؤْمَرُ } (الحجر: ٩٤). فسجد وقال: سجدت لفصاحته، وسمع رجلا آخر يقرأ { فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا } (يوسف: ٨٠). فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام) .

وإذا كان العرب - وهم بهذه المنزلة بلاغة وفصاحة - قد عجزوا هذا العجز التام المطبق، فغيرهم أشد عجزا، وأبعد هزيمة.

لقد عنى العلماء بإبراز بلاغة القرآن في هذا المضممار تطبيقا، ولو تتبعنا ذلك من خلال أبواب البلاغة المتعارف عليها لاستغرق ذلك تفسير القرآن كله، ولكن حسبنا أمثلة في أبرز مجالاتها، وهي الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، نذكرها موجزة غير مطولة: فمن أشهر ما ضربوه مثلا في باب الإيجاز قول الله تعالى : { وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ } (البقرة: ١٧٩). فإنهم قارنوه بما استحسَنوه من كلام العرب : (القتل أنفى للقتل) فظهر البون شاسعا، والتفاوت بعيدا في البلاغة والإيجاز كليهما، وذلك من وجوه أربعة: أولها: أن عبارة القرآن أكثر فائدة مما قاله العرب لاشتمالها على ما قالوه مع زيادة معان حسنة، منها إيانة العدل لذكره القصاص، وإبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرغبة لحكم الله به، الثاني: أنها أوجز، فإن عبارة القرآن (القصاص حياة) عشرة أحرف، وأما (القتل أنفى للقتل) فأربعة عشر حرفا، الثالث: بعد عبارة القرآن عن الكلفة بالتكرير الشاق على النفس، والرابع: حسنها بتأليف الحروف المتلائمة، وهو مدرك بالحس، وموجود في اللفظ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة، لبعدهم الهمزة من اللام، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام، فباجتماع هذه الأمور كان القرآن أبلغ وأحسن، وإن كانت عبارة العرب بليغة.

ثانيا: إعجازه في نظمه وأسلوبه